□ تقديم □

بقلم فضيلة الشيخ

محمد صفوت نور الدين ، الرئيس العام لجماعة أنصار السنة بمصر

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه على المنهج الصواب إلى يوم الدين ، وبعد :

ففي حديث النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم : « أصدقُ الأسماء : حارث وهمام » ؛ ذلك لأنَّ لكلّ نفس في كل حال (همًّا) ، ولكن من الأنفس ما يكون همُّها دنيئًا يرشدها إلى كل مرذول ، ويعينها على الباطل ، ويصرفها عن الهداية والصواب ، ومن أمثلة ذلك قوم لوط وفرعون . ومن الأنفس ما يكون همُّها عاليًا ، تطلب من الأمور معاليها ، وتجتنب أراذلها ، فتقصد إلى المقامات السامية والدرجات الرفيعة ، تزكو بأعمالها ، وترتفع بأوقاتها ، ورائد هذه الطائفة همُ الأنبياء والمرسلون ومن سار سيرهم واهتدى بهديهم ، وحاديها في سيرها الجنةُ وذكرُها ، والقرب من ربِّهم والأنس إليه يوم لقائه .

وهذا الدكتور سيد حُسين العفانّي – جزاه الله خير الجزاء – بما عهد له من قلم سيَّال ، وباع واسع في الكتابة والتسطير ، وكتابته تأخذ بالمسلم قلبًا وقالبًا إلى طريق الإيمان ، قد انبرى قلمُه ليكتب عن الهمة وعلوِّها ، **فحملت جعبتُه الطيب يوم حمْلها ، فإذا بها يوم وضْعها تضع توائم سبعًا** جميلات حسناوات ، وفي الوزن ثقيلات ، وفي العبارة رشيقات ، تسعَدُ إذا

حملتَ إحداها ، وتسقيك عذبًا إذا قَبَّلْتَ شفتيها ، توائم خمس في مجلدات ذاخرة وافرة ، لو شاء صيَّرها عَشْرًا ؛ لأنَّ كلَّ واحدة منها تزن اثنتين أو تزيد ، توائم خمس لا تغنيك واحدة عن أختها ، بل تحثُّك عليها ، وتدلُّك على ما بعدها ، وتدفعك إلى البقية دفعًا .

هذا ، وقلبي محبٌّ لأصحاب الهمم العالية ، ومنهم المصنِّف - إن شاء الله تعالى - ولا نزكّي على الله أحدًا ، ويعجز قلمي وتحتار عبارتي في وصفه ، وهو يُجيد الوصف ، ويعجز قلمي عن تقديم كتابه وهو جيِّد العرْض جميل السَّرْد ، لكنني مع ضعف همَّتي - أسأل الله أن يقوِّيَها في الخير وأن يجنِّبها الزَّلَل والشر - أَشرُفُ بتقديم كلماتٍ للقارىء بين يدي الكتاب المبارك بفضل الله ومَنِّه وكرمه ، حيث إن الهمة العالية والقصد إليها درجة تَنافَس فيها المتنافسون . فأهل علوِّ الهمة مطلبُهم الجنة ؛ ﴿ **كلَّا إنَّ كتابَ الأبرارِ لَفي عِلِّيِّين وما أدراك ما عِلِّيّون كتابٌ مرقومٌ يشهدُهُ المقرَّبونَ إنَّ الأبرارَ لَفي نعيمٍ علىٰ الأرائكِ ينظرونَ تعرِفُ في وُجُوههِمْ نضْرَةَ النعيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رحيقٍ مختومٍ ختامُهُ مِسْكٌ وفي ذلكَ فليتنافس المتنافسونَ** ﴾ [المطفّفين : ١٨ - ٢٦] .

الهمة العالية درجة شخَص إليها العبَّاد والزهَّاد والمجاهدون والعلماء والحكماء ، وإليها شمَّر السابقون من الأنبياء وأصحابهم ومَن سار على منهجهم ، وفيها أنفق المنفقون ومن وافقهم ، فهي قُوت قلوب السالكين ، وغِذاء أرواح العارفين ، وقرَّة عيون المؤمنين الموحِّدين .

الهمة العالية هي الحياة التي مَن حُرمها فهو مِن جملة الأموات ، والنور الساطع الذي يسترشد به الغرباء في بحارِ ظلمات الدنيا ، وهي الشفاء الذي مَن فُقِده فقَدْ أصابته جميعُ الأسقام ، وبها تكون اللذة التي مَن لم يظْفر بها فعيشُه كلُّه هموم وآلام .

الهمة العالية رُوح الأعمال والأحوال ، متى خلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه ، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالِغيها إلا بشقِّ الأَنْفُس ، وترفعهم إلى منازلَ في الجنة لم يكونوا بدونها واصليها ، ولا بالتجافي عنها مُدْركيها .

الهمة العالية عند المؤمنين رُوح تنبع من قوله تعالى : ﴿ **إنْ يكنْ منكمْ عشرونَ صابِرونَ يغلبوا مائتينِ وإنْ يكنْ منكمْ مائةٌ يغلبوا ألفًا مِنَ الذينَ كفرُوا بأنَّهُمْ قومٌ لا يفقَهُون** ﴾ [الأنفال : ٦٥] .

الهمة العالية عند المؤمنين تُستَمدُّ من قوله تعالى : ﴿ **كمْ مِن فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ذلك بأنهم يؤمنون بالله القائل: ﴿ **إنْ تنصروا اللهَ ينصرْكُمْ ويثبتْ أقدامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

ومن الهمة العالية عند المؤمنين حالَ الضعف يكون التخفيف ، فيكون قوله تعالى لهم : ﴿ **الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكمْ وعِلمَ أنَّ فيكمْ ضعْفًا فإنْ يكنْ منكمْ مائة صابرةٌ يغلبُوا مائتين وإنْ يكنْ منكمْ ألفٌ يغلبُوا ألفيْن بإذنِ اللهِ واللهُ معَ الصابرين** ﴾ [الأنفال : ٦٦] .

الهمة العالية تُستمدُّ من ربِّ العالمين الذي قال للملائكة يومَ بدر : ﴿ **إني معكمْ فثبِّتوا الذينَ آمنُوا سأُلقي في قلوبِ الذينَ كفرُوا الرعبَ** ﴾ [الأنفال : ١٢] . تُستمد من ربّ العالمين الذي أنزل في كتابه ﴿ **إلَّا تنصرُوه فقدْ نصرَه اللهُ إذ أخرجَهُ الذينَ كفرُوا ثاني اثنينِ إذْ هُما في الغارِ إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزنْ إنّ اللهَ معنا** ﴾ [التوبة : ٤٠]. تُستمدُّ من ربّ العالمين حيثُ علَّمهم أن يقولوا : ﴿ **ربَّنا أفرِغْ علينَا صبْرًا وثبِّتْ أقدامَنا وانصرْنا علىٰ القومِ الكافرين** ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

أصحاب الهمة العالية يعلمون أن الله الرافع الخافض ، القابض الباسط ، المعطي المانع ، يرفع من يشاء ؛ ﴿ **ونريدُ أنْ نَمُنَّ على الذينَ استُضْعفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثينَ ونمكّن لهمْ في الأرضِ ونريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهمْ ما كانُوا يحذرون** ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] . والله يقول : ﴿ **إنَّ الأرضَ للهِ يُورثها مَن يشاءُ مِن عبادِه والعاقبةُ للمتقين** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

الهمة العالية تجعل أصحابها في حماية ربِّهم ؛ لقولِه : ﴿ **إلّا عبادَك منهمُ المخلَصين** ﴾ [الحجر : ٤٠] . كتاب الله يخبر أصحاب الهمم العالية ويُخبر مَن دونهم حتَّى يلحقُوا بهم : ﴿ **وعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصالحاتِ ليستخلِفنَّهمْ في الأرضِ كما استخْلفَ الذينَ مِن قبلِهمْ وليمكِّننَّ لهمْ دينَهُمُ الذي ارتضىٰ لهمْ وليبدِّلَنَّهمْ من بعدِ خوفِهمْ أمنًا يعبدونني لا يُشركون بي شيئًا ومَن كَفَر بعدَ ذلِكَ فأولئكَ همُ الفاسقونَ وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ لعلّكُمْ تُرحمون لا تحسبَنَّ الذينَ كفرُوا معجِزينَ في الأرضِ ومأْواهُم النارُ وَلَبِئسَ المَصِير** ﴾ [النور : ٥٥ - ٥٧] .

يقول صاحب « المدارج » : (الهِمَّة) فِعْلة من الهمِّ ، وهو مبدأُ الإرادة ، ولكنْ خصُّوها بنهاية الإرادة ، فالهمُّ مبدؤها والهمَّة نهايتها . (ثم يقول) : إنَّ همَّة العبد إذا تعلَّقتْ بالحقّ تعالى طَلَبًا صادقًا خالصًا محْضًا فتلكَ هي الهمة العالية ، ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها ، وصاحب هذه الهمة سريعٌ وصولُه وظفره بمقصوده ، ما لم تعُقْه العوائق ، وتقطعه العلائق . وأول نبضات الهمة : تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحملُه على الرغبة في الباقي ، وتُصَفِّيه من كوادر التواني .

ويقول أيضًا : الهمَّامُ يأنف أن ينزل من سماء مطلبه العالي ، فهو في سفر دائم بالقلب إلى الله ليحصل له ويفوز به ؛ فإنه طالب لربّه تعالى طلبًا

تامًّا بكلّ معنًى واعتبار ؛ في عمله وعباداته ومناجاته ، ونومه ويقظته ، وحركته وسكونه ، وعزلته وخُلطته ، وسائر أحواله . فقد انصبغ قلبه بالتوجُّه إلى الأعمال ، ولا يقف عند عِوض ولا درجة ؛ فإن ذلك نُزُول من همته ، ومطلبُه أعلى من ذلك ، فإن صاحب هذه الهمة قد قصَر هِمَّتَه على المطلب الأعلى الذي لا شيء أعلى منه ، والأعواضُ والدرجاتُ دونه ، وهو يعلم أنه إذا حصل له فهناك كلّ عِوَض ودرجة عالية . انتهى .

وإنني إذْ أسطر هذه الكلمات إنما أريد أن أعيش بين سطور هذا الكتاب وقتًا طويلًا ، نُحسِنُ الصحبة مع أصحاب الهمم العالية في مختلف مراحل أعمارهم ، وكافة وظائفهم ومهامِّهم ، بين القُضاة والحكَّام والعلماء والمجاهدين ؛ فإنَّ حسن الصحبة تُورث المحبة ، والنبي ﷺ يقول : « المرءُ مع مَن أحبَّ » . . فهيَّا أيُّها القارىء الكريم نتعرف على القوم لِنُحِبَّهم ، لعلّ الله أنْ يُنزلنا منازلهم ، وأن يبلِّغنا درجاتهم وإنْ قصُرتْ بنا الأعمال وضعفتْ الهمم عن بلوغ ما بلغوه ، وإحراز ما أدرَكوه وجمعوه ، وحتى لا تضيع الهمة بل تنمو وتزكو بصحبتهم في الكتاب القيّم الثمين (صلاح الأمة في علوّ الأمة) .

واللهَ أسأل أنْ ينفع به كاتبه وقارئه ، والمرشد إليه ، والله الهادي إلى الصواب ، وهو من وراء القصد ، وهو حسبي ونعْمَ الوكيل ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

كتبه فقير عفو ربّه :

محمد صفوت نور الدين

الأول من رمضان سنة ١٤١٦هـ

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ محمد بن إسماعيل

□ بسم الله الرحمٰن الرحيم □

الحمد لله الذي قسَّم خلقه إلى تقيٍّ أوَّاب ، همَّتُه طلب الخيرات والاكتساب ، وبغيتُه الزلْفى إلى الله والاقتراب ، ﴿ **أولئكَ الذينَ هداهُمُ اللهُ وأولئكَ همْ أولوا الألباب** ﴾ ، وفاجرٍ كذَّاب ، همَّتُه مصروفةٌ إلى اللَّهو والطعام والشراب ، يعمِّر جسمه وقلبُه خراب يَبَاب ، فكيف إذا كُشف الحجاب ، وحقَّ عليه قولُ ربِّ الأرباب : ﴿**ورأوا العذابَ وتقطعتْ بهمُ الأسباب**﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الوهَّاب ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، ﴿ **نعمَ العبدُ إنَّهُ أوَّاب** ﴾ صلى الله وسلم وبارك عليه ، وعلى الآل والأصحاب . أمَّا بعد :

فإن « كِبَر الهمة » معنى خليق بالإحياء والتجديد ، حَرِيٌّ بأن تتضافر الأقلام في الحثّ عليه ، جدير بأن تتواردَ الألسنة على الإغراء به والسعي إليه ؛ إذْ إنّ « علوَّ الهمة » هو الدواء الأمثل لما حلَّ بنا – أفرادًا وجماعات ، شعوبًا وحكومات – من واقع أليم ، وبلاء عظيم ، وخطب جسيم ، إلا مَن رحِمَ ربي .

وإذا كان آخر هذه الأمة لا يصلح إلّا بما صلح به أوّلها ، فإنَّ أعظم ما أصلح سلفنا الأبرار جمعُهم القوَّتين اللَّتين هما كالجناح للطائر ؛ أعني القوة العلمية « البصيرة » ، والقوة العملية « الإرادة أو الهمة » التي هي نشدان الكمال الممكن في العلم والعمل ، واستصغار ما دون النهاية من معالي الأمور .

وفي « العلم » و « الهمة » مَخرج لأمتنا من تِيهِ الضعف والوهَن ، ونجاة من صحراء العجز والكسل ، وفيهما إنقاذ لشبابنا – عُدَّةِ الحاضر ، وأمل

المستقبل - من وَهْدة الفتور ، ووحْل الضياع الذي يُراد لهم أن يغرقوا فيه ، كي يسهل افتراسُهم دون مقاومة تُذكَر ، فرُبَّ نائمٍ أيقظتْه الهمة العالية من رقْدته ، ورُبَّ فاجر رُزق بها الوَلاية ، وبلغ منازل الأبرار .

إن أقوى البواعث على ارتفاع الهمة مصاحَبَةُ المجتهدين في العلم والعمل ، للانتفاع بلحْظهم ولفْظهم ، ثم سماع أحوال السلف ومَن تبعهم بإحسان من الخلف ، ومطالعة أخبارهم وسِيَرِهم التي تشحذ الخاطر ، وتحرّك العزيمة نحو المعالي .

وهذا عيْنُ المقصود من جمْع مادة هذا المجموع الحافل الذي عُني مؤلِّفه بجمْع مادَّته مما طالتْه يدُه ، وبلغتْه طاقته من تراجم وسير ومراجع ؛ جمعًا يَشي بهمّة عالية ، وجهدٍ جهيدٍ بذله ، فكان ثمرته هذا المجموع المبارَك الذي بدا - رغم الاستطراد في بعض المواضع - كأنه قرْص من أقراص أبكار النحل ، جَنَتْهُ من طرائف الأزهار العطرية ، ومجَّتْ فيه عسلَها المشتار من طوائف الثمار الشهية .

فالله سبحانه وتعالى يتقبَّله بأحسن القبول ، وينفع به مَن وصل إليه ، ومثُلَ بين يديه ، ويجعله حُجَّة له لا حُجَّة عليه ، ويثيب جامِعَه الأجر الجزيل ، والذكر الجميل ، ويجعله دوْمًا مفتاح خير ، مغلاق شرٍّ ، إنه سميع مجيب . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

وكتب :

محمد أحمد إسماعيل المقدّم

الإسكندرية ليلة السبت ٢١ رمضان

١٤١٦ هـ الموافق ١٩٩٦/٢/١٠ م.

□ مقدمة لفضيلة الشيخ عائض بن عبد الله القرني □

الحمدُ لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وآله ومن والاه .

وبعد :

فقد اطَّلعتُ على رياضٍ خضراء في هذا الكتاب الفذِّ في بابه ، المُتفرِّدِ في موضوعه ، وقد أتحفَنا مؤلِّفه بكنوز غالية من تراثنا المجيد ؛ فمَرَّةً يتلو علينا من الذِّكر الحكيم ، ومرَّةً يُفيض علينا من معين السُّنَّة الثَّرِّ ، وحينًا يقُصُّ علينا أحسنَ القَصَصِ من تاريخنا الشائق ، وأحيانًا يُشنِّف أسماعنا بما لذَّ وَطاب من الشِّعر العربي الأصيل .

والمؤلِّف - حفظه الله - يستنهضُ هِمَمَنا ، ويُحرِّك عزائمنا ، ويحدو ركابنا ، ويصيح في نائمينا : « حيّ على الفلاح » .

يا له من كتاب للجيل الواعد الذي تَحُفُّ به الشهوات ، وتستخفُّه الأماني ، وتتلاعب به الأهواء ، فيأتي هذا الكتاب كالنذير العُرْيان ؛ يهتف في الجموع : تقدَّموا ، وفي الغافلين : تنبَّهُوا ، وفي الكُسالى : ثابِرُوا .

ومَنْ يُطالِعْ هذا السِّفْرَ المُبارَك يعلمْ أنَّ كلَّ الصَّيْد في جوف الفِرا .

وقد عرفْنا مؤلِّفَ هذا الكتاب من قبلُ عبْر كُتُبِه الشائقة الموثَّقة ، ومنها « رهبان الليل » وغيره ؛ فوجدناه جيَّاشَ الخاطر ، مشبوبَ العاطفة ، عارم الهمَّة ، قويَّ الإرادة ، عذْبَ الحديث .

وإنني مُتفائل كلَّ التفاؤل بمستقبلٍ لهذا الكتاب ، وقبول له في الناس ، وترحيبٍ حَارٍّ به في أوساط الباحثين عن الحقيقة ، المُتلمِّسين للطريق ، السائلين عن الهداية ، القابضين على جَمْر الصبر في زَمنِ الفتنة .

أخي سيّد :

أمتعَ الله بحيَاتك ، وأنْسَأَ في أَثَرِك ، وبارَكَ في عُمرك ، ورفعَ درجتك ؛ فقد أتحفتَ أحبابَك ، وأثلجتَ صدورَ أصحابك ، بما كتبتَ وجمعتَ وأبدعتَ ودبَّجْتَ :

جُزيتَ خيرًا على فضْلٍ أتيتَ به   لكم بمعروفكم في الصالحات يَدُ
فاعذرْ حسودَك فيما قد خُصِصتَ به   إنَّ العُلا حَسَنٌ في مِثْلِها الحَسَدُ

عائض القرني
الرياض
٢٨/ ١١/ ١٤١٦هـ

* * *

□ مُقدِّمة بقلم فضيلة الشيخ الدكتور / محمد عبد المقصود العفيفي □

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مُضلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يأيُّها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يأيُّها الناس اتقوا ربَّكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يأيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدًا يُصلحْ لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومَنْ يُطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله : « لا يصلح آخر هذه الأُمَّة إلا بما صلح به أولها » .

فكيف ربَّى النبي ﷺ أصحابه ؟!

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : حدَّثنا رسول الله ﷺ ، فقال : « إنَّ الأمانة نزلتْ في جَذْر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعَلِموا من القرآن ، وعَلِموا من السُّنة ، ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظلُّ أثرُها مثلَ الوكْت[1]، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه ، فيظلُّ أثرُها مثلَ المَجْل[2]،

---

(١) هو الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه .
(٢) أن يكون بين الجلد واللحم ماءٌ من أثر العمل .

كجمْرٍ دحْرجتَه على رجْلك فنَفِط[1] ، فتراه منتبرًا[2] ، وليس فيه شيء ، فيُصبح الناس يتبايعون ، لا يكاد أحد يُؤدِّي الأمانة ، حتى يُقال : إن في بني فلان رجلًا أمينًا ، حتى يُقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ! وما في قلبه حبَّةُ خردل من إيمان »[3].

فلمَّا جاء العلم على قلوب قد رُبِّيت على الإيمان أثمر أعمالًا .. وهذه الأعمال هي التي نتحدَّث عنها إلى اليوم ، فقد قال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسدُ كُلُّه ، وإذا فسدت فسد الجسدُ كُلُّه » . فكان السلف من الصحابة ومَنْ بعدهم ذوي هِمَمٍ عالية في شتَّى جوانب الدين ، أخذوه بِقوَّة .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا صنَّفَه رجُلٌ ذو هِمَّةٍ عالية .. ومن الأمثلة على عُلُوِّ همَّته : أنه لما صنَّف كتابه العظيم « رهبان الليل » نصحه الشيخُ الفاضلُ بقيَّةُ السلف محمد بن إسماعيل بالإسراع في مُصنَّف آخر « فرسان النهار » فنشط بالفعل ، ومع جمْعه لـ « فرسان النهار »[4] قدَّم إلى المكتبة الإسلامية هذا السِّفر العظيم ، ولا شكَّ أن هذا السِّفر وهذه الموسوعة إثراءٌ للمكتبة الإسلامية .

وهذه المقدِّمة تزيدني شرفًا ولا تزيد الكتابَ ولا مُصنِّفَه شيئًا وما كنت لِأجرؤ على أن أُقدِّم لهذا الكتاب أو لِكُتُب هذا الرجل لولا إصرار المؤلِّف ، فإنه يُحسنُ بي الظنَّ ، وليسَ لي إلا أن أقول كما قال الصدِّيق:« اللهمَّ اجعلني

(١) أي قرح عملًا .
(٢) مرتفعًا .
(٣) رواه الشيخان ، وأحمد ، والترمذي ، وابن ماجه .
(٤) سيصدر قريبًا إن شاء الله .

خيرًا ممَّا يظنُّون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تُؤاخذني بما يقولون » .

فجزاه الله خيرًا ، ونسأله عزَّ وجلَّ أن يجعلَ هذا الكتاب في ميزان حسناته ، وأن ينفع المسلمين به .

وكتبه

محمد عبد المقصود العفيفي

* * *

□ مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أبي إسحاق الحويني □

بســم الله الرحمن الرحيــم

إن الحمد لله تعالى نحمدُه ، ونستعين به ونستغفرُهُ ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله تعالى فلا مُضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ .

أمَّا بعدُ ، فإن أصدق الحديث كتابُ الله تعالى ، وأحسن الهَدْي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتُها ، وكلّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ ، وكل ضلالة في النار .

فنحن في أمسِّ الحاجة إلى موضوع هذا الكتاب، لا سيّما في زماننا هذا ، وقد أُوتينا من الضعف والهوان أضعاف ما أُوتي أسلافنا من الجدّ والقوة ، لقد ملكوا الدنيا ، ودانت لهم الممالك ، وأرغموا أنف كلِّ كافرٍ في سنواتٍ لا تُعدُّ شيئًا في أعمار الأمم ، وإنما حصَّلوا ذلك بصدْق الانتماء ، والهمَّة العالية .

وهذا الكتاب الحافل قيَّدَه يراعُ صاحبنا الكريم - الصادق الودّ - الشيخ سيد بن حسين العفّاني ، جزاه الله خيرًا ، وأجاد تقسيمه وترتيبه ، وأجهد نفسه في تهذيبه وتقريبه ، حتى صار طويل الذيل ، فلا تفتر همَّتك في مطالعته فتميل عنه كلَّ الميل ، فقد احتوى على نفائس من سِيَر السلف الصالحين ، تقرُّ بها أعينُ السالكين ، فصار بمنزلة الحادي ، يفتقر إليه كلُّ حاضرٍ وبادي .

ولست أتكلّم في مقدّمتي هذه عن « علوّ الهمّة » فقد أطال صاحبُنا

وأطاب ، لكنني سأتكلّم عن موضوعٍ آخر ، له مساسٌ عكسيّ بموضوع الكتاب ، ألا وهو دناءةُ الهمة ، وما يستتبعها من بلادة الفهم ، وضحالة العلم ، وغباء الذّهن ، ورسوخ الجهل ، ويُضاف إلى كلِّ ذلك الإعجاب به !! وذلك من باب : « وبضدّها تتميّز الأشياء » ، وسيعلمُ القارئ بعد مطالعة هذه المقدمة قدْر أسلافنا وعلو همّتهم في مقابلة دناءة هِمَمِ المتأخرين .

ومن دلائل نبوّته ﷺ ، أنه أخبرنا أنه سيأتي زمانٌ يتكلَّمُ فيه الرُّوَيْبِضة ، ولما سُئل ﷺ : ما الرُّويبضة ؟ قال : « الرَّجُل التَّافِه يتكلَّم في أمر العامَّة » .

أمَّا هذا « الرُّويبضة » فإنه اسمُ عَلَم لكثيرٍ من الذين سُمح لهم أن يتكلّموا في دين الله - كتابًا وسُنَّةً - بجهلٍ ومكرٍ ودهاءٍ .

وأحد هذا « الجنس » بيطريٌّ جاهل ، ومن الطريف أنه تخصَّص في « السموم » ونال فيها شهادة الدكتوراه ، وكلّ كتبه التي كتبها تشهد بكفاءته في هذا التخصُّص . كبر الرجل وترعرع في « زمان الغربة الثانية » ، وفي غيبة « هيئة كبار العلماء » بدأ يكتب !!

فهل تدرون - أيها القُرّاء - ما مؤلَّفات الرجل ؟

الكتاب الأوَّل : سمَّاه « تذكير الأصحاب بتحريم النِّقاب » ، ذهب فيه إلى أن المرأة المتبرّجة التي تمشي في « المصيف » على شاطئ البحر « بالمايوه » أفضل عند الله من المنتقبة العفيفة التي سترت نفسها ، وحُجَّته في ذلك أن المتبرجة عاصيةٌ ، تعلم أنها عاصية ؛ فهذه يُرجى لها التوبة ، أمَّا المنتقبة فإنها عاصيةٌ تظنّ أنها فاضلة ، فلذلك ستبقى على ضلالتها وعمايتها ، لأنها تظنّ أن هذا الضلال هو الهدى ! وقد ردَّ عليه كثيرون ، وأتوا على بنيانه من القواعد ، وأمْثَلُ هذه الردود ، ردُّ صاحبنا الشيخ أبي الفرج محمد ابن إسماعيل ، حفظه الله تعالى .

الكتاب الثاني : هو كتاب « شفاء الصَّدْر في نَفي عذاب القبر » !! فخالف أهل السُّنَّة والجماعة ، وردَّ صريح القرآن ومتواتِر السنة في هذا الأمر .

ثم ثالثة الأثافي : أنه أصدر الجزء الأوَّل من كتابٍ سمّاه « تبصير الأُمّة بحقيقة السُّنَّة » ينفي فيه السنة - إلَّا من حيث الجملة - وذكر في مطلع كتابه أن علماء المسلمين جميعًا ، لا يستثني منهم واحدًا ، قد غشُّوا المسلمين ، ولم يقوموا بواجب النُّصح ، فلم يتوقَّف واحدٌ منهم لمعرفة حقيقة السُّنَّة النبوية ، وأنهم قدَّسوا الصحابة والتابعين ، مع أنهم غيرُ معصومين من الخطأ ، وانفصل على أن السنة لم تحفظ ، ولا تثبت إلَّا من حيثُ الجملة .
ثم يقول : إن ما ارتكبه علماء المسلمين جميعًا - لا يستثني منهم واحدًا - جعل الحمْل عليه ثقيلًا ، فابتعثه الله عز وجلَّ إلينا في القرن الخامس عشر ليصحِّح لنا ما أخطأ فيه جميعُ العلماء ، وقد ارتدى الرجل مُسُوح أهل العلم ، وطالعَ بعض كُتُبٍ في « الأصول » ، فكأن الكلمة أعجبته ، فصار يكرِّرها كثيرًا في كتبه ليُرهب بها العوام ، ممن قلَّ حظُّهم من التفقُّه في دين الله عز وجلَّ ، وكبر معه الأمر حتى صدق أنه « أُصُولي » ، فاضطرّه ذلك إلى مساورة جبال الحفظ والفهم ، وظنَّ أنه « رجُل » ! فهو رجلٌ وهم رجالٌ ، فذكَّرني صنيعُهُ بما حدث للشاعر « ثابت بن جابر » المعروف بـ « تأبَّطَ شرًّا » ، فقد ذكر أبو الفرج في « كتاب الأغاني » (١٨/٢١١) أن « تأبَّط شرًّا » لقي ذات مرَّةٍ رجلًا من « ثقيف » يقال له : « أبو وهب » ، وكان رجلًا أهوج ، وعليه حُلَّةٌ جيِّدةٌ ، فقال أبو وهبٍ لتأبَّط شرًّا : بم تغلبُ الرجالَ يا ثابت ، وأنت كما أرى دميمٌ وضئيلٌ ؟! قال : باسمي !! إنما أقولُ ساعة ألقى الرجلَ : أنا تأبَّط شرًّا ، فينخلعُ قلبُهُ ، حتى أنال منه ما أردتُ !! فقال له الثقفيُّ : أبهذا فقط ؟! قال : قطُّ . قال : فهل لك أن تبيعني اسمك ؟! قال : نعم ، فبم تبتاعُه ؟ قال : بهذه الحُلَّة وبكُنْيتي ! قال له :

افعل . ففعلا . وقال تأبّط شرًّا : لك اسمي ولي اسمُك ، وأخذ حُلّته وأعطاه طِمْرَيْه ثم انصرف ، فقال تأبّط شرًّا يخاطبُ زوجة الثقفيّ :

ألا هل أتى الحسناءَ أنَّ حليلَها تأبّطَ شرًّا واكتنيتُ أبا وَهْبِ
فَهَبْهُ تسمَّى اسمي وسمَّاني اسمه فأين له صبري على مُعظمِ الخطْبِ
وأين له بأسٌ كبأسي وسَوْرَتي وأين له في كلِّ فادِحةٍ قلبي

فظنَّ « البيطريُّ » أنه بمجرد تَزَيِّيهِ بزِيِّ العلماء ، وتكلُّمه ببعض عباراتهم ، أنه منهم ، فأربى بذلك على الثقفيّ !

ولأنه يعلم أن كثيرًا من الناس يقف مبهورًا أمام كثرة المناصب والشهادات ، دأَبَ على كتابة « نياشينه » في كتبه ، فيذكُر تخرُّجه في كلية « الطب البيطري » ، ثم ترقِّيه من رتبة « المعيد » إلى « الدكتوراه » ، إلى تعيينه « بقرار وزاري » - ويضعها بين قوسين كأنه « قرار سماوي » - عضوًا باللجنة الفُلانيّة ، ثم دراسته في كلية الآداب ثم حصوله على دكتوراه في «الفلفسة»- هكذا كتبتُها عمدًا- ثم حصوله على إجازة في القراءات ... إلخ . فلقد ظن الرجل أنه بهذه « الشهادات » قادرٌ على محو علماءِ الأُمَّة بجرَّة قلم ، وقد علم القاصي والداني أن هذه الشهادات لا تُعطي صاحبها علمًا ، فضلًا عن الأدب ، إنما تفتح له الباب حسْبُ ، وأما الرجُل فإنه يقبع تحت خط الفقر في العلم والأدب معًا ، وقد ذكَّرتْني « نياشينُهُ » صاحبَ القطّ ، فهل تعرفُهُ ؟

فقد حكَوْا أن رجُلًا كان يحملُ قطًّا ، فقابله رجلٌ فقال له : ما هذا القطُّ ؟ وقابله ثانٍ فقال له : ما هذا الهرُّ ؟ وقابله ثالثٌ فقال له : ما هذا السِّنَّوْر ؟ وقابله رابعٌ فقال : ما هذا السَّبُع ؟ وقابله خامس فقال : ما هذا الخيطل ؟ وقابله سادسٌ فقال : ما هذا الهِزَبْر ؟ فقال الرجل : كلّ هذه الأسماء ؟! لا بدّ أن ثَمَنَهُ كبيرٌ ! فذهب إلى السوق وهو يُمنّي نفسه

بالغِنى ، فوقف يعرضه للبيع فكان ثمنه درهمًا واحدًا ، فرماه على الأرض وقال : قاتلك الله ! ما أكثر أسماءك وأقلَّ غناءَك !!

تصدَّر للتدريسِ كلُّ مُهوَّسٍ   بليدٍ تسمَّى بالفقيه المُدرِّسِ
فحُقّ لأهلِ العلمِ أن يتمثَّلُوا   ببيت قديمٍ شاع في كلِّ مجلسِ
لقد هزلتْ حتى بدا من هُزَالها   كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفلِسِ

أكثر « البيطريُّ » من ذكْر « المنهجيَّة » و « الحياد العلمي » ، وكرَّر كثيرًا قوله : « أيُّها القارئ المحايد » فهل تدري أيها القارئ ما معنى « الحياد » ؟ إنه تَرْك الانتماء إلى السلف ، فهم عنده ناسٌ « مجرَّد ناس » لا فضْل لهم ؛ لأنهم يزعمون أن الانتماء داعيةُ « الانحياز » ، وأنك إذا أحببْتَهم ، وانتميتَ إليهم ، فلن ترى عيوبَهم ، ولا أخطاءهم ، ومن أثر ذلك أنك ستحاول إيجاد مخارج لكلامهم المُنافي « للعقل السَّوِيّ » !!

وهذا « الحياد العلمي » هو الذي جعل « طه حسين » ينظر إلى « القرآن المجيد » على أنه كتاب أدبي ، وينبغي أن نعرضه للنقد بهذا الاعتبار ، لأنك لو اعتبرته من عند الله فلا بد أن تُذعن له ، وإذا مرَّ بك ما لم تَستَسِغْه ، فلا مناصَ من أن تتَّهم نَفْسك ، لأنه لا يتَّهِم ربَّه إلَّا كافر !!

فلقد تطاولَ « البيطريُّ » على أبي هريرة الصحابيّ الجليل ، حافِظِ الصحابة ، وأحد المجتهدين في الفقه ، فعامَلَهُ على أساس أنه « رجُل » ، مجرَّد رجل .

فقد قال (ص٣٩٨) : « فقد كان أبو هريرة (رضي الله عنه)[1] يُكثر من رواية الحديث عن رسول الله ﷺ ويسْرُدُه سردًا ككلام الناس ،

---

(١) هكذا وضعها بين قوسين ، وقد عهدنا منه في كتابه أنه كثيرًا ما يعني عكسَ ما يكتب . قاتله الله .

ويُكثر من رواياته العديدة في المجلس الواحد ، فضلًا عن كونه (رحمه الله) كان غير ضابطٍ لنقل الرواية ، مما جعل السيدة عائشة رضي الله عنها تُنكر ذلك عليه ... وكذلك أوهامه وظنونه التي وضعت المفاسد العظيمة في الدين (بحُسن نيَّةٍ منه رحمه الله) مما يجعلنا نفكِّر ألف مرَّةٍ قبل أن نُسلِّم لأية روايةٍ في الحديث ، مهما كانت صحيحةً لأي راوٍ من الرواة على وجه العموم ، ولروايات أبي هريرة رضي الله عنه - مهما كانت موثَّقةً - على وجه الخصوص » .

ثم أورد كلمةً لعائشة رضي الله عنها ، علَّقتْ بها على حديثٍ حدَّث به أبو هريرة رضي الله عنه ، قالت فيها : « أساء أبو هريرة سمْعًا فأساء إجابة » . فعلَّق « البيطريُّ » قائلًا : « وقد كان هذا يكفي أن يكُفَّ أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رواية الحديث كليَّةً بعد ذلك ، أو ألا يُؤخذ عنه الحديث بالمرة ، لعدم ضبطه رحمه الله للرواية ، لا أن يكون أكثر الرواة حديثًا على الإطلاق ، فإن هذا من أعجب العجب » . وصرَّح بمثل هذا الكلام الهابط كثيرًا في كتابه .

فإذا كان « البيطريّ » يتكلَّم هكذا عن الصحابة ، فكيف عن آحاد العلماء ؟

وأنا لن أدعك تفكِّر أو « تتخيَّل » طريقته في الكلام عن العلماء ، فقد ذكر حديثًا رواه الإمام البخاريّ رحمه الله في « صحيحه » ثم علَّق عليه قائلًا (ص٥٠٤) : « ولا بدَّ أن نتنبَّه هنا إلى أن البخاري رحمه الله ، كان فيما يبدو طيِّبًا - « البيطريُّ » يعني : مغفلًا - وأمينًا فيما ينقل ، ولكنَّه رحمه الله لم تكن له درايةٌ كبيرة بدراسة الحديث !! إذ لو كانت له - رحمه الله - دراسة للحديث ، وللمتن خصوصًا ، لما أثبتَ هذه الرواية في « صحيحه » ، ولكن يبدو أن الرجل (الفاضل) كان على الفطرة

(والتِّلقائيَّة) لدرجة أن تبلُغ به السذاجة أن يروي مثْل هذا الحديث المنافي لأبسط المبادىء و (الممكنات) العقلية في جميع العصور ، وتلك هي المأساة الكبرى في أُمَّتنا ، وهي أخْذ أحكام الدين تَبَعًا لشهرة الرجال ، وصحة السند ، ولتذهب المبادىء العقلية إلى الجحيم ، مهما كانت هي مناط التكليف وأساس الإسلام » .. ثم قال (ص٥٠٥) : « كما أننا لا ننسى هنا – أيضًا – أن نُعيد ما سبق أن قرَّرْناه من قبل ، من أن الصحابي الفاضل أبا هريرة رضي الله عنه ، لم يكن من أهل العلم أو المعرفة ، ولا من أهل الدراية برواية الحديث أو بإثبات الأحكام ، وإن كان أمينًا فيما يُعهد إليه به ، وقد كان هذا كفيلًا بأن يمنعه – رضي الله عنه – من رواية هذه الكثرة من روايات الحديث ، لأنه رحمه الله استخفَّ بالأمر ، ومضى به على غير وجهه الصحيح ، ولم يلتزم منهاج النبي ﷺ ، بحسن نيَّةٍ ولا شك !! فقام علينا – لذلك وغيره – عبءُ الدراسة المستفيضة لهذه الآلاف المؤلَّفة من رواياته في الحديث ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ » . اهـ .

قُلْتُ : انتهى كلام « البيطريُّ » . وذِكْرُه للآية الكريمة ، في آخر كلامه ، ذكَّرني بقصةٍ عجيبةٍ ؛ فقد حكَوْا أن امرأةً قُتل زوجها ، فذهبت إلى قاتلٍ محترفٍ ، يستعين به الناس في قتْل من يريدون مُقابل أجرٍ يدفعونه ، فجاءت المرأة إليه ، وسألته أن يقتُل فلانًا – قاتل زوجها – فقال لها : كم تدفعين ؟ فبكت المرأةُ ، وأخبرتْه أنها فقيرة وتُنفق على أيتام ، فرقَّ قلبُ القاتل وقال : سأقتله لوجه الله ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ !! فانظر إلى هذا الوَرَع الكاذب ، واحمد الله الذي عافاك .

ربَّما ساء ظنُّك – أيها القارىء – لأنني لم أُقدِّم نموذجًا من فهْم الرجل للنصوص حتى الآن ، يُنادي عليه بالجهل الذي وصفْتُهُ به في مطلع كلامي . فأقول : حنانيْك بل هَدَادَيْك ، فكلّ سطرٍ في كتابه يحتاج إلى ردٍّ ، ولأنني

أُقدِّمُ لكتابٍ ، ومن شأن المقدِّمات أن لا تطول ، فسأذكر مثالين فقط ، ثم أُلَخِّص لك كلامه حتى أُريك كيف يُعالج « النصوص » .

أمّا المثال الأول :

فذكر « البيطريُّ » في كتابه (ص : ٥٠٣ - ٥٠٤) أن البخاريَّ روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : « قال سليمان ابن داود عليهما السلامُ : لأطُوفنَّ الليلة على مائة امرأةٍ - أو تسعٍ وتسعين امرأة - كلهنّ يأتي بفارسٍ يُجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبُه : إن شاء الله . فلم يقُل : إن شاء الله . فلم يحمل منهن إلَّا امرأةٌ واحدةٌ ، جاءت بشقِّ رجُلٍ . والذي نفسُ محمدٍ بيده ، لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا في سبيل الله عز وجلَّ فرسانًا أجمعين ... » .

فعلَّق « البيطريُّ » قائلًا : « ونحن نترك للقارئ أن يقدِّر بمقتضى العقل السَّوِيّ ، الذي لا يختلف على حُكمه إنسانٌ واحد في الكون !! مدى صحَّة هذه المقولة الواردة في هذا الحديث الصحيح « للأسف » ! وهي : « لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة - أو تسعٍ وتسعين - كلهنّ يأتي بفارسٍ » حيث تصوِّر لنا ما يأتي :

١ - أن ليلة واحدةً يمكن أن تتَّسع لمُجامعةِ مائة امرأةٍ - أو تسعٍ وتسعين - وهذا هامّ ، فليُنْتَبَه إليه !!

٢ - أن نبيًّا من أنبياء الله تعالى ، يمكن أن يُعلن هذا القول على الناس ، بهذا الأسلوب غير المهذَّب ، وهم أكملُ الناس خُلُقًا ، وأوفرهم أدبًا ، حتى يُراجعه صاحبه في ذلك ، كما دلَّتْ عليه ألفاظ الحديث .

٣ - أن نبيًّا من أنبياء الله تعالى ، يعرف أن النساء يلدن الذكور والإناث ، ثم يشترط على الله تعالى أن يكون كلّ ما تضع هذه النساء ذكورًا ، بأُسلوب يحكم على الله سبحانه بما يقول » .

ثم ذكر « البيطريُّ » الكلام السابق ، والذي نقلتُه في شأن الإمام البخاريّ رحمه الله .

والحقُّ يقال ، أن الرجُل تعامَلَ مع هذا النَّصّ « بغباءٍ شديد » ، فهذا « العِنِّين » يقيس قدرات نبيٍّ من أنبياء الله بقدراته ، ويلفت الأنظار إلى هذا الاعتراض الذي أورده ، برغم ضحالته وتفاهته ، فأي نكارةٍ أن يكون في مقدور نبيٍّ أن يجامع مائة امرأة في ليلةٍ واحدةٍ ، إذا كان مؤيَّدًا من قِبَل الله تعالى ، ومُعانًا على ذلك ، ولا زال العجز عن إتيان النساء معرَّةً عند بني آدم ، والقدرة على ذلك من تمام الرجولة وكمال الفحولة ، وللأنبياء عليهم السلام تمام الكمالات ، فلا يُنكر على من أمكنه الله تعالى من رقاب الجنّ والطير ، أن يكون له هذا الشيء اليسير الذي هو موجودٌ الآن عند بعض بني آدم . هذا **أوَّلًا** .

ثانيًا : أنه زعم أن كلمة « لأطوفنَّ » غير مهذَّبة ، ونقول : كيف وهي من ألطف الكنايات ، في الدلالة على هذا الفعل ، وهي مثْل قوله تعالى : ﴿**فلمَّا تغشَّاها حَملتْ حَمْلًا خفيفًا**﴾. [الأعراف : ١٨٩]. لكنَّ الرجل مصابٌ في ذوقه وفهمه ، حتى يرى أن مِثْل هده الكناية اللطيفة غيرُ مهذبة . ثم أين في الحديث أن سليمان عليه السلام جَمَعَ الناس ، وأخبرهم أنه سيأتي نساءه الآن ؟! ليس في الحديث إلَّا أنه قال ذلك ، فإمّا قاله بصوت عالٍ كأنَّهُ يُحدِّث نفسه ، فسمعه صاحبُه ، أو أنه فاتَحَ صاحبه في ذلك ، وعلى الوجهين فليس فيه ما يشين قائله ، فلو قال قائل : إنني ما تزوَّجتُ إلَّا ليرزقني الله برجالٍ يتفقَّهون في دين الله عز وجلَّ ، وينشرون السُّنَّة بين الخلْق . أفيعيبه ذلك ؟ وهل ترى أيها القارئ - صاحب العقل السَّويّ حقًّا - أن في هذا الكلام اشتراطًا على الله عز وجلَّ ، من قريبٍ أو من بعيدٍ ؟! لقد قال سليمان عليه السلام هذه المقالة على سبيل الرجاء والتَّمنِّي ،

ولو سلَّمنا أنه اشترط ذلك على الله ، فإن الأنبياء عليهم السلام لا يفعلون إلا شيئًا مأذونًا لهم فيه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ ثبوت الجبل الأشمّ أنه قال : « إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبَرَّهُ » . فالأنبياء أَوْلى بذلك .

ثالثًا : أن صاحب سليمان كان مَلَكًا ، كما ثبت ذلك في «الصحيح»، وهذا يُكذِّبُ دعوى « البيطري » أن سليمان عليه السلام قال ذلك لأحدٍ . والله أعلم .

ومجالُ القول واسعٌ جدًّا ، سأستوفيه في الرَّدِّ إن شاء الله تعالى .

أمّا المثال الثاني :

فإنه أعجبُ وأطمُّ من سابقه ، ولم أرَ قلَّةَ توفيقٍ وسدادٍ صاحبت أحدًا ، مثلما صاحبتْ هذا « البيطريَّ » .

فقال المسكين تحت عنوان : « أحاديث تخالف مقتضيات العقل السوي » (ص٤٩٧ - وما بعدها) : « من مرويّات الحديث ما رواه البخاري ومسلم - رضي الله عنهما - عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء مَلَك الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك . قال : فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها . قال : فرجع الملك إلى الله فقال : إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت ، وقد فقأ عيني . فردَّ الله عليه عينَهُ وقال : ارجع فقُلْ له : يضع يده على متن ثورٍ ، فله بكلِّ ما غطَّتْ به يدُهُ ، بكل شعرةٍ سَنَةٌ . قال : أي ربِّ ، ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فسأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجرٍ » . قال: قال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثمَّ ، لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » .

علَّق « البيطريُّ » على الحديث قائلًا : ونحن نلفت نظر القارىء- لا

أكثر - إلى النقاط التالية :

١ - أن الرسول ﷺ - بمقتضى هذه الرواية - يحدِّث أصحابه الأفاضل (رضي الله عنهم) بهذه القصة ليعلمهم ما فيها من الأحكام الشرعية !! فيا ترى ما هذه الأحكام ؟

٢ - أن موسى عليه السلام يأتيه ملك الموت ، ويبيّن له أنه جاء من عند الله تعالى ، ومع ذلك يعتدي عليه ! وهو يُذكر لنا ، لنعلم مدى استهانة نبيّ رسولٍ (من أُولي العزم) بأمرٍ إلهي يأتيه مع مَلَكٍ قد تنزّل من قِبل الله تعالى بهذا الأمر !!

٣ - أن المَلَك ضعيف البنية ، لدرجة أن لطمةً من يد موسى (عليه السلام) تفقأ عينه !

٤ - أن موعد الموت قابلٌ للتأجيل تَبَعًا لظروف كلِّ حالة ، وليس كما قال الله سبحانه : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون** ﴾ [النحل : ٦١] .

٥ - أن المَلَك الموكَّل بالأمر الإلهي يرجع إلى الله تعالى ، دون تنفيذ الأمر المكلَّف به ، تَبَعًا لقدرات الإنسان (المرسَل إليه) فالاعتداء كلَّما كان قويًّا على الملائكة ، كلّما حقَّق أعظم النتائج ، حتى في تأجيل الموت نفسه !

٦ - أن موسى (عليه السلام) ؛ استطاع أن يردَّ الإرادة الإلهية بَردِّ مَلَك الموت (وضرْبه وتأديبه) فليست القاعدة عند الملائكة هي كما قال تعالى : ﴿ **وما نتنزَّل إلا بأمر ربِّك** ﴾ [مريم : ٦٤] وإنما هي مسألة غير منضبطة . والمهمّ أن تظهر قوة موسى (عليه السلام) - في الرواية - ولا يهمّ بعد ذلك الإساءة إلى القدرة الإلهية ، والتدبير الإلهي ؟! وبالتالي يصبح قولُه تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفَّته رسلنا وهم لا يفرِّطون** ﴾ . [الأنعام : ٦١] . بلا معنى ! وتصبح الملائكة مفرِّطين في الأمر الإلهي !! لأن

قدرتهم أقلّ من قدرة الإنسان !!

٧ - أن موسى (عليه السلام) لم يستوعب الموقف ، إذ فهم أن ردَّه لمَلَك الموت سيُنهي المسألة تمامًا ، بحيث لن يقدر مَلَكٌ آخر أن ينزل إليه مرَّةً ثانية !وتصوَّر أنه بذلك يهرب من الموت !!

٨ - أن موسى (عليه السلام) يكره لقاء الله تعالى إلى هذا الحدّ الذي يَضرب فيه ملكَ الموت ، فيفقأ عينه ، لمجرَّد أنه قال له : (أجِب ربك) !!

٩ - أن موسى (عليه السلام) رجُلٌ طائش ، لا يعرف كيف يضبط نفسه ، فهو عندما لا يريد الموت ، لا يلجأ إلى الدعاء والتَّضرُّع مَثَلًا (بفرْض حدوث ذلك منه) بل يَستعمل يده مباشرةً ، حتى في مواجهة الملائكة ، مما يجعلنا نتوقَّع منه (عليه السلام) أكثر من ذلك - بمقتضى هذه الرواية - يومَ القيامة عند الحساب ، بحيث يمكن أن نشهد عرضًا عظيمًا ، وصراعًا رائعًا ، ربَّما يصرع فيه موسى (عليه السلام) مَلَكَيْن أو أكثر ، فيطرحهم أرضًا بلكماته القوية ، والخلائق تشهد ذلك في موقف الحساب !

١٠ - أن ملك الموت رجع مخاطبًا الله تعالى بأسلوب التنبيه بقوله : (إنك أرسلتني إلى عبدٍ لك لا يريد الموت) !! كأنه يريد أن ينبِّه الله (تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا) إلى أن الإرسال في هذه المرَّة لم يكن على نحوٍ حكيم ! إذ إن العبد المرسل إليه كان لا يريد الموت ، فكيف حدث هذا من الله سبحانه ؟؟ هكذا ، أيها القارئ؟؟ ولك- الآن- أن تُقرِّر ما تشاء؟؟!

لكنَّنا نتساءل : تُرى مَن الذي دَسَّ علينا كلّ هذه الروايات الإجرامية ، حتى يهدم فينا العقيدة الصحيحة ، ويوقع بيننا وبين ربِّنا سبحانه ، فيحول

بيننا وبين رضاه جل شأنه ، فتشقى أمتنا - بذلك - إلى يوم الدين ؟؟!
تُرى مَنْ فعل هذا ؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل !!

قُلْتُ : فهذا كلامُه كلُّه ، نقلتُه مع طوله وإملاله ؛ لتعلم أيُّها القارئ هل قائله ممن أنعم الله عليهم « بالعقل السَّوِيّ » أم أنه مخبولٌ ؟!

ويحضرني الآن ما ذكره أهلُ الأدب أن خالد بن صفوان - الخطيبَ البليغَ - كان في الحمَّام يومًا ، فرآه رجلٌ وابنُهُ ، فأراد الرجل أن يُري خالدًا ما عنده من الفصاحة والبيان ، فخاطب ابنَهُ قائلًا : يا بُنَيَّ ، ابدأ بيداك ورجلاك !! ثم التفت إلى خالد كالمتباهي وقال : يا أبا صفوان ، هذا كلامٌ قد ذهب أهلـه !! فقال له خالد : هذا كلام لم يخلق اللهُ له أهلًا قطُّ !!

و « البيطريُّ » تابعٌ لبعض المارقين في ترديد هذه الاعتراضات ، لكنَّه أضاف إليها من سوء أدبه وركاكة أسلوبه .

وقد أجاب أهل العلم عن هذا الحديث بجوابين :

الأول : ما ذكره الإمامُ العَلَمُ ابنُ حبان البُستي في « صحيحه » فقد قال (٦٢٢٣) : « ذكْر خبرٍ شَنَّع به على منتحلي سنن المصطفى ﷺ مَنْ حُرِم التوفيق لإدراك معناه » ، ثم روى الحديث وعقَّب قائلًا : « إنَّ الله جلَّ وعلا بعث رسولَ الله ﷺ مُعَلِّمًا لخلقِه ، فأنزله مَوْضِعَ الإبانةِ عن مراده ، فبلَّغَ ﷺ رسالَته ، وبيَّن عَنْ آياته بألفاظٍ مُجْمَلَةٍ ومفسَّرة ، عَقَلَها عنه أصحابُه أو بعضُهم ، وهذا الخَبَرُ مِنَ الأخبار الَّتي يُدْرِكُ معناه مَنْ لَمْ يُحْرَمِ التَّوفيقَ لإصابة الحقِّ .

وذاك أنَّ الله جلَّ وعلا أرسلَ ملَكَ المَوْتِ إلى موسى رسالةَ ابتلاءٍ واختبارٍ ، وأمَرَهُ أن يقولَ له : أَجِبْ رَبَّكَ ، أمْرَ اختبارٍ وابتلاءٍ ، لا أمرًا يُرِيدُ الله جلَّ وعلا إمضـاءَه ، كما أمر خليلَه - صلى الله على نبينا وعليه - بذبح ابنِهِ أمْرَ اختبارٍ وابتلاءٍ ، دُونَ الأمر الذي أراد الله جلَّ وعلا إمضاءَه ،

فلمَّا عزم على ذبْح ابنه ، وتَلَّهُ للجبينِ ، فداه بالذِّبْحِ العظيمِ .

وقد بعثَ الله جلَّ وعلا الملائِكَةَ إلى رُسُله في صُوَرٍ لا يعرفُونَهَا ، كدُخول الملائكة على رسوله إبراهيمَ ولم يعرِفْهم ، حتَّى أوجسَ منهم خيفَةً ، وكمجيءِ جبريلَ إلى رسول الله ﷺ وسؤاله إيَّاه عن الإيمانِ والإسلامِ ، فلم يعرفْهُ المصطفى ﷺ حتَّى ولَّى .

فكان مجيءُ مَلَكِ الموت إلى موسى على غيرِ الصُّورَةِ الَّتي كان يعرفْه موسى عليه السَّلامُ عليها ، وكان موسى غيورًا ، فرأى في داره رَجُلًا لم يعرِفْهُ ، فشال يَدَهُ فَلَطَمَهُ ، فَأَتَتْ لَطْمَتُهُ على فَقْءِ عينِه الَّتي في الصُّورة الَّتي يَتَصَوَّرُ بها ، لا الصُّورة الَّتي خَلَقَه الله عليها ، ولمَّا كان المصرَّح عَنْ نبيِّنا ﷺ في خبرِ ابن عبَّاس ، حيث قال : « أمَّني جبريلُ عِنْدَ البيتِ مرَّتين » ، فذكر الخَبَرَ . وقال في آخره : « هذا وَقْتُكَ وَوَقْتُ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ » : كان في هذا الخبرِ البيانُ الواضحُ ، أنَّ بعضَ شرائِعِنا قد تَتَّفِقُ ببعض شرائعِ مَنْ قبلنا مِنَ الأَمَمِ .

ولمَّا كانَ مِنْ شريعَتِنا أن مَنْ فقأَ عَيْنَ الدَّاخل دارَه بغيرِ إذنه ، أوِ النَّاظرِ إلى بيته بغيرِ أمرِه مِنْ غير جُنَاحٍ على فاعِلِه ، ولا حَرَجٍ على مُرْتَكِبِه ؛ للأخبار الجَمَّةِ الوارِدَة فيه الَّتي أمليناها في غيرِ موضعٍ مِنْ كُتُبنا - كان جائزًا اتِّفاق هذه الشَّريعة بشريعة موسى ، بإسقاط الحَرَجِ عمَّن فقأَ عَيْنَ الدَّاخلِ داره بغير إذنه ، فكان استعمالُ موسى هذا الفعلَ مباحًا له ، ولا حرجَ عليه في فِعْلِه .

فلمَّا رَجَعَ مَلَكُ الموتِ إلى ربِّه ، وأخبره بما كان مِنْ موسى فيه ، أمَرَهُ ثانيًا بأمرٍ آخرَ ، أمْرَ اختبارٍ وابتلاءٍ كما ذكرنا قبلُ ، إذ قال الله له : قل له : إن شئتَ ، فضع يَدَكَ على متن ثورٍ ، فلك بكلِّ ما غطَّتْ يدُك بكلِّ شعرةٍ سَنَة ، فلمَّا عَلِمَ موسى كَلِيمُ الله - صلَّى الله على نبيِّنا وعليه - أنَّه مَلَكُ الموت ، وأنَّه جاءَه بالرِّسالة مِنْ عندِ الله ، طابتْ نَفْسُه بالموت ،

ولم يَسْتَمْهِل ، وقال : فالآنَ .

فلو كانتِ المرَّةُ الأُولى عَرَفَه موسى أنَّه مَلَكُ الموت ، لَاسْتَعْمَلَ ما استعمَل في المَرَّة الأُخْرى عند تيقُّنه وعِلْمه به ، ضِدَّ قَوْلِ مَنْ زعم أنَّ أصحابَ الحديثِ حَمَّالةُ الحَطَب ، ورُعَاةُ اللَّيل ، يَجْمَعُون ما لا يَنْتَفِعُون به ، ويَرْوُونَ ما لا يُؤجَرون عليه ، ويقولون بما يُبطلُه الإسلامُ ، جهلًا منه لمعاني الأخبار ، وتَرْكَ التَّفَقُّهِ في الآثار ، معتمدًا منه على رأيه المنكوسِ ، وقياسِهِ المعكوسِ » .

قُلْتُ : ونَقَلَ الحافظ في « الفتح » (٤٤٢/٦) عن ابن خزيمة نحوه .

وهذا البيان من هذا الحافظ الجليل - ابن حبان رحمه الله - يأتي على اعتراضِ « البيطريِّ » من القواعد ، وقد تعرِضُ شبهةٌ لآحاد الأذكياء فاتتْ على المعترض ، وهي في قوله : « أجب ربك » ، فقد يقول قائل : إن هذه الكلمة كانت كفيلةً بأن يعرف موسى عليه السلام أنه مرسَلٌ من عند الله .

فقد أجاب ابن حبان (١٤/ ١١٧) قائلًا : « هذه اللَّفظة (أَجِبْ ربَّكَ) قَد توهِمُ مَنْ لم يتبحَّر في العلمِ ، أنَّ التَّأويلَ الَّذي قلناه للخبر مَدْخُولٌ ، وذلك في قولِ مَلَكِ الموت لموسى : (أَجِبْ رَبَّك) بيانُ أنَّه عرفه ، وليس كذلك ، لأنَّ موسى عليه السَّلامُ لمَّا شال يدَهُ ولَطَمَهُ ، قال له : (أجب ربَّك) ، تَوَهَّمَ موسى أنَّه يتعوَّذ بهذه اللَّفظة ، دُون أن يكونَ رسولَ الله إليه ، فكان قولُه : (أجب ربَّك) الكشفَ عن قصْدِ البداية في نفس الابتلاء والاختبار الذي أُريد منه » . انتهى .

ثم قوله لموسى عليه السلام : « أجب ربّك » ، معناه : سلِّم لي نَفْسَك لأنتزعَ روحك ، فهذا هو القتْل ، ودفْع الصائل واجبٌ حتى لو أدَّى إلى قتْله كما قرَّره العلماء ، وقد قال النبيُّ ﷺ : « من قُتل دون أهْلِهِ وماله فهو شهيد » .

الجوابُ الثاني : أنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه لم يُقبض نبيٌّ قطُّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُخيَّر » . قالت عائشة : فلما نزل به ، ورأسُهُ على فخذي غُشي عليه ، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ، ثم قال : « اللهم الرفيق الأعلى ». فقلت : إذن لا يختارُنا .... الحديث .

أخرجه البخاريُّ (٨/ ١٣٦، ١٥٠، ٢٥٥، ١١/١٤٩، ٣٥٧)، ومسلم (٢٤٤٤/٨٦)، وأحمد (٦/٢٩٦)، وابنُ ماجة (١٦٢٠) ، وحماد بن إسحاق في « تركة النبي ﷺ » (ص٥٢) وابن عبد البر في « التمهيد » (٢٤/٢٦٨ - ٢٦٩). من طريقين عن عروة عن عائشة .

وفي رواية لسعد بن إبراهيم عن عروة : « ما من نبيٍّ يمرض إلَّا خُيِّر بين الدنيا والآخرة ... » .

قُلْتُ : فهذا الحديث صريحٌ في أن كلَّ نبيٍّ كان يخيِّره الله عز وجل بين الحياة والموت ، وقد خُيِّر نبيُّنا ﷺ ، فروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : خطب رسول الله ﷺ الناس وقال : « إن الله خيَّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله ! » قال : فبكى أبو بكرٍ ، فعجبْنا لبكائه أن يُخبر رسولُ الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّر ، فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا .

فلما جاء مَلَكُ الموت موسى عليه السلام في صورةٍ لا يعرفها ، يقول له : أجب ربّك . ثم هو لم يخيَّر ، وكانت آيةً لهم ، فَعَلَ ما فعَل .

فأيُّ نكارةٍ - يا عباد الله - في هذا الحديث الرائع ، بعد هذا البيان المختصر لمعناهُ ؟! ولكن الأمر كما قيل :

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يجد مُرًّا به الماءَ الزُّلالَا

ونعودُ لنُذَكِّر « البيطريَّ » أن حاله لن يكون أحسن حالًا من أسلافه ،

كمحمود أبي ريَّة والسيد صالح أبي بكر ، ومِنْ قبلهم غُلاة الرَّوافض ، فقد ذهبوا إلى مزبلة التاريخ ، وبقيتِ السُّنَّةُ النبوية شامخةً ، يُقرِّبها الأساطينُ دانية القطافِ إلى جماهير المسلمين .

وقد أطلق بعض الأذكياء على مثل «البيطريّ» وأشياعه لقب «المجددينات» فقال له سامعُه : ما هذا الجمعُ الغريب ؟ ما هو بجمع مذكرٍ سالم ، ولا هو جمعُ مؤنث سالم ، فقال له : هذا جمع « مخنَّثٍ » سالم ، فأقسم له سامعُه أن اللُّغة العربية في أشد الحاجة إلى هذا الجمع ، خصوصًا في هذه الأيام .

فهي والله فوضى ولا عُمَر لها ، وقد أعطاني الكتابَ بعضُ أفاضل إخواني وطلب مني أن أَرُدّ ، والتمس مني ذلك ، وطَلَبَ إبطال ما هنالك ، فلمَّا انفصلتُ بتُّ ليلتي متفكِّرًا ، فقرع خاطري ما قاله أبو سفيان يوم أُحُد : أفيكم محمدٌ ؟ أفيكم أبو بكرٍ ؟ أفيكم عمرُ ؟ فقال النبي ﷺ : « لا تُجيبوه » . تهاوُنًا به ، وتحقيرًا لشأنه . فلمَّا قال : اعْلُ هُبَل . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه ؟ » قالوا : وما نقول ؟ قال : « قولوا : الله أعْلَى وأجَلُّ ». فقال أبو سفيان : لنا العُزّى ولا عُزى لكم . فقال لهم : « قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم » . فعلمتُ أن النبي ﷺ أمرهم أن يجيبوه إعلاءً لجناب التوحيد ، وإظهارًا لعزة من عَبَدَهُ المسلمون ، فحينئذٍ جرَّدتُ أسِنَّة العزائم والرَّدّ ، واستعنتُ على ردّ أباطيله بالواحد الفرد ، وليت مصنِّف هذا الهَذَيان ، تنكَّب عن ميدان الفرسان ، ليَسْلَم من أسنّة ألسنتهم عِرْضُه ، وينطوي من بساطِ المشاجرة طولُه وعَرْضُه ، ولم يسمع ما يضيق به صدرُه ، ولم يَنْهَتِكْ بين أفاضل الأُمَّة سترُه ، وإن قد أبى إلا المُهارشة والمُناقشة ، والمُواحشة والمُفاحشة ، فليصبر على جزِّ الغلاصم وقطع الحلاقم ، ونَكْز الأراقم ، ونهش الضّراغم ، والبلاء المتراكم المتلاطم ،

ومتون الصوارم . فوالذي نفسي بيده ، ما بارز أهلَ الحقِّ قطُّ قرنٌ ، إلَّا كسروا قرنَهُ ، فَقَرعَ مِنْ نَدَمٍ سِنَّه ، ولا ناجزهم خصمٌ إلَّا بشَّروه بسوء منقلبه ، وسدُّوا عليه طريق مذهبه لمهربه ، ولا فاصَحَهُم أحدٌ - ولو كان مثل خطباء إياد - إلَّا فصحوه وفضحوه ، ولا كافحهم مقاتلٌ - ولو كان من بقيَّة قوم عاد - إلَّا كبّوه على وجهه وبطحوه ، هذا فِعْلُهم مع الكُماة الذين وردوا المنايا تبرُّعًا ، وشربوا كئوسها تطوُّعًا ، وسعوْا إلى الموت الزُّؤام سعيًا ، وحسبوا طَعْم الحمام أرْيا ، والكفاة الذين استحقروا الأقران فلم يَهُلْهُم أمرٌ مَخُوف ، وجالوا في ميادين المناضلة واخترقوا الصفوف ، وتجالدوا لدى المجادلة بقواطع السيوف .

وقد عزمت على كتابة ردٍّ عليه ، تَزْهَق منه رُوحُه وتُستلب من بين جنبيْه ، وسمَّيْتُه « الجهد الوفير ، في الرَّدّ على (البيطريّ) نافِخ الكِير » ، فأنا أكتبه على فتراتٍ متباعدةٍ ، وأسجِّل فيه كلَّ شاردةٍ وواردة ، وأرجو إن تمَّ الكتاب أن يكون مستأصِلًا لشأفته ، قاضيًا على غثاثته وسخافته ، ماحقًا لتخليطه وخرافته .

ولله درُّ من قال :

بليتُ به جَهُولًا جاهليًّا ثقيلَ الرُّوح مذمومًا بغيضَا
ولم يكُ أكثرَ الطّلّابِ علمًا ولكنْ كان أسرعَهُم نُهُوضَا

والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلَّا على الظالمين ، والله غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون .

والحمد لله أوّلًا وآخرًا ، ظاهرًا وباطنًا .

وكتبه
أبو إسحاق الحويني الأثري
عفا الله عنه

العاشر من رمضان سنة ١٤١٦هـ